شفاء الصدور الحرجة

بشرح القصيدة « المنفرجة »

بقلم

راجى عفو ربه الرءوف

حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية سابقا ، وعضو جماعة كبار العلماء

ويليه

القصيدة مضبوطة

الطبعة الثانية

سنة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

مطبعة المدنى

٦٨ شارع العباسية — القاهرة

﴿ ربِّ آشرح لى صدرى ويسِّر لى أمرى
واحلُل عُقدة من لسانى يفقَهوا قولى ﴾

[قرآن كريم]

الطبعة الثانية

بإشارة أخ مؤمن صالح محب للعلم وأهله
الصالحين راج المثوبة من رب العالمين
بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق كل شيء بقدرته ، قاهر كل شيء بعظمته ، مدبِّر جميع الكائنات بحكمته ؛ مفرِّج الكروب برحمته ، كاشف الخطوب برأفته (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ، والصلاة والسلام على نبيِّ الرحمة . وهادى الأمة ، صاحب المقام المحمود . واللواء المعقود . والحوض المورود يوم الدين ، وعلى آله وأصحابه مصابيح الظلام ، وحماة الإسلام ، وقدوة الأنام ، وسائر التابعين .

(وبعد) فهذه منظومة [المنفرجة] المنسوبة إلى الإمام العارف بالله (أبى الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزرى الأصل التلمسانى المعروف بابن النحوى) المتوفى سنة ٥١٣ هـ وقد كان فقيها يميل إلى الإجتهاد «على ما قاله العلامة أبو عبد الله محمد بن على التوزرى المعروف بابن المصرى» ـ أو إلى العارف بالله أبى عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الأندلسى القرشى المتوفى سنة ٥٩٩ هـ بالقدس وقد أقام بمصر مدة وله كلمات وجمل فى آداب المعاملات وطرائق أهل الرياضات «على ما قاله الإمام تاج الدين ابن السبكى فى طبقاته ـ مع نقله الأول عن ابن المصرى» ـ وهى من المنظومات المباركة التى تستروح بها النفوس فى طلب تفريج الكروب ، وكشف الخطوب ، من علام الغيوب ، ولذا سماها التاج ابن السبكى [الفرج بعد الشدة] وقال إنها مجربة لذلك ، ويستجاب بها الدعاء هنالك .

وكان يرددها فى الشدائد العلامة محمد بن زكريا الأنصارى والد شيخ الإسلام زكريا الأنصارى رحمهما الله .

وقد تضمنت من العقائد والحقائق ، والفوائد والدقائق ؛ والفرائد والرقائق

ما به شرح الصدور ، وصفاء القلوب ، وإرواء الغلة وشفاء العِلة ، وبلوغ المقاصد من الأحوال السنية ، والمقامات العلية .

ولذا عنى بها قديماً جهابذة العلماء والأدباء فخمّسها الإمام العلامة شاعر حماة على بن محمد بن عبدالله علاء الدين بن مليك الحموى .. ثم الدمشقى .. «ولد بحماة سنة أربعين وثمانمائة هـ واشتغل بالعلوم العربية والفقه الحنفى والأدب وبرع فى الشعر الرفيع حتى لم يكن له فى عصره نظير فى فنونه ، وله ديوان ومدائح نبوية ، وتوفى فى شوال سنة سبع عشرة وتسعمائة هـ بدمشق» (كما فى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة . لنجم الدين الغزى) .

وشرحها كثيرون . منهم الإمام شيخ الاسلام أبو يحيى زكريا الأنصارى السنيكى المصرى المتوفى سنة ست وعشرين وتسعمائه هـ . شرحها شرحا وافيا سماه [الأضواء البهجة فى إبراز دقائق المنفرجة] . وعنى فيه ببيان ما اشتملت عليه من المجازات والاستعاوات البيانية والمحسنات البديعية .. وفرغ منه . فى ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وثمانمائة هـ .

ومنهم : العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز الصوفى المكى شرحها شرحاً صوفيا بحتاً ، سماه [المنعرجة فى شرح المنفرجة] .

* * *

وقد كان لى عهد منذ الصبا بهذه المنظومة المباركة . فبدا لى فى إبّان الشيخوخة أن أجدد العهد بها فقرأتها وطالعت هذين الشرحين ، ثم عنّ لى أن أشرحها شرحاً لطيفاً ، مختصراً واضحاً لاتعرض فيه للمباحث البيانية ، ولا للمحسنات البديعية ، ولا للمعانى الاشارية ، مؤيّداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . رجاء اجتناء طالبيها ثمارها من قطوف دانية ، وإرواء ظمئهم من عين سلسبيل صافية . . فشرعت فيه مستهل ذى الحجة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

وألف هـ . وأتممت معظمه بالحرمين الشريفين فى شهر المحرم مفتتح سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف ، ثم أكملته بالكويت والبحرين من إمارات الخليج العربى فى شهر صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف ، وذلك فى فترات الفراغ من الشواغل ، سائلا المولى عزوجل أن يقبله خالصا لوجهه الكريم . وينفع به النفع العظيم . وأن يمن علينا وعلى جميع المسلمين فى جميع الأقطار بتفريج الكروب ، وتبديد الخطوب . إنه على مايشاء قدير . نعم المولى نعم النصير ؟

كتبه

حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية السابق

وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الناظم رحمه الله — بعد البسملة والحمد لله والصلاة والسلام على سيد الأَنام :

﴿ اشتدِّى أزمةُ تنفَرجى قد آذنَ ليلُك بالبلَج ﴾

« الأزمة » الشدة ، وتجمع على أزم وإزم . كعنب . (تنفرجى) تنكشفى وتزولى (آذن) أعلم (البلج) محركا الضياء والاشراق .

اشتداد المحنة يؤذن بالفرج

استهل الناظم منظومته بمخاطبة الشدائد والمحن التى كثيراً ما يصاب بها العبد فى الدنيا فتشق عليه ، وتضيق بها عليه نفسه ، ويشتد منها مضضه — تنزيلا لها منزلة مَن هو أهل للخطاب . فقال : —

أيتها الأمة — اشتدى ماشئت فى النكاية ، وابلغى ماأردت فى القسوة ، فلن يستقر فى قلب المؤمن الصادق يأس ولا قنوط من رَوْح الله ورحمته . قال تعالى ﴿ ولا تيأسوا من رَوْح الله. إنه لاييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون ﴾ . ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه . أولئك يئسوا من رحمتى . وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ . ﴿ لايسأم الانسان من دعاء الخير . وإن مسّه الشر فيئوس قنوط ﴾ . ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ﴾ . ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ . ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدَّمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ .

ولن يتزلزل يقينه بأن ذلك من الابتلاء والامتحان من الله لعباده «وهو أعلم بأمرهم» ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .

وهو تمحيص وتصفية لقلوبهم ، وصهر وطهرة لنفوسهم . إذا صحبه الإيمان والرضا والصبر .

قال تعالى ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ . ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ ﴿ لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾ ثم قال ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ وقال ﴿ أحسِب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين ﴾ ﴿ أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكم مثل الذين خَلَوا من قبلكم مسَّتْهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

ولن يضعُفَ رجاؤه في الله إنه وهو اللطيف بعباده الرءوف الرحيم سيجعل بعد عسر يسرا ، وبعد ضيق فرجا فيكشف الغمة ويفرِّج الكربة ، ويجزل المثوبة على صدق اليقين وحسن الرجاء والظن به تعالى .

قال تعالى ﴿ فإن مع العُسر يُسرا إن مع العسر يسر ﴾ . وقال في التوبة على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم ﴾ . ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنجِّي من نشاء ﴾ . ﴿ وهو الذي ينزِّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ . ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمَنَةً نُعاسا يغشى طائفة منكم ﴾ .

وقال في الأحزاب وقد جاءوا لغزو المدينة ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا

نعمه الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ . ﴿ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الفرج مع الكرب » .

❋ ❋ ❋

فشدّتك ايتها الأزمة . مهما استحكمت بشيرة بانتهائك ، وقسوتك مهما طالت مُؤْذِنة بزوالك، وظلمة ليالك مهما اُعتكرت . سيمحوها ضياء الصبح بعده .

وإذا كانت بدايتك ـ بتقدير الله ـ محنة ، فنهايتك ـ بلطفه تعالى ـ منحة . ولله تعالى الحمد والثناء فى كل حال .

﴿ وظلامُ الليل له سُرُجٌ حتى يغشَاهُ أبو السُّرُجِ ﴾

(سُرُج) كواكب كالمصابيح جمع سراج (أبو السُرُج) الشمس . قال تعالى ﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ . ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ .

التدرج فى كشف المحنة

ومن السنن الالهية غالبا فى تفريج الشدائد القاسية ، وكشف المحن الغاشية التدرج فى الألطاف ، وتخفيف وطأتها بشيء من الاتحاف ليأنس به المبتلَى . ويفسح له باب الأمل والرجاء ، ثم يتم الله عليه النعمة فضلا منه ومِنّة فيفرج الكربة ويبدل العسر يسراً وهو اللطيف الخبير .

❋ ❋ ❋

ألا ترى الليل الدامس إذا اُعتكرت ظلمته ، واشتدت رهبته ، وعظمت

وحشته تُرى فى أعطافه نجوم السماء ، ترسل بصيصا من النور والضياء ، ويبزغ فيه القمر يسيرا ثم يكبَر تدريجيا حتى يصير بدرا منيراً ، فيخفف ذلك من ضرائه حتى يغشاه النهار بضيائه فتمحى ظلمته : وتنقشع وحشته كأن لم تكن بالأمس .

قال تعالى ﴿ وآيةٌ لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكورا ﴾ .

هذا ـ وقد يأتى الفرج وحِيًّا عجِلا دون تدرج .

ولكل تقدير حكمةٌ وتدبير ، من لدن الحكيم الخبير

﴿ وسحابُ الخير له مطرٌ فإذا جاءَ الإبَّان يَجِي ﴾

(الإبان) بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحدة : الوقت والحين (يجى) أصله يجىء .

المقدرات الإلهية أوقات محددة

نعم قد تطول المحنة ، ويتفاقم الخطب ، ويبطىء الفرج فيتسرب القلق والجزع بل شىء من اليأس والقنوط إلى النفس بحكم البشرية . ولكن ذلك لا يلبث أن يزول من نفس المؤمن الصادق . ولا يستقر فيها لتحصُّنه باليقين بأن لجميع المقدرات فى العلم الإلهى أزلا أوقاتا مقدرة ، معلومة محددة لوجودها فى عالم الأكوان . لا تتقدم عنها ولا تتأخر . ومنها تفريج الكُروب . وكشف الخطوب . فإذا أراد الله تفريجها وكشفها . فإنما يقع ذلك فى وقته المقدر المعلوم .

ولله تعالى فى ذلك حكم بليغة ، وأسرار عجيبة ، تعلو على مدارك البشر ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلا ﴾ .

ألم تر — أيها المبتلَى — أن السحاب الذى يرسله الله بالخير والرحمة إلى البلد الميت لا يمطُر فيه إلا فى الوقت المُحدد له ، فإذا حان الوقت نزل الغيث وأخصب ، وأحيا الأرض بعد موات . قال تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيث ﴾ أى فى إبانه من غير تقديم ولا تأخير فى بلد لا يتجاوزه به وبمقدار تقتضيه الحكمة ، وقال تعالى ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بُشْرًا بين يدى رحمته حتى إذا أقلَّت سحابا ثِقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ . ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبُث لا يخرج إلا نكِدا ﴾ . ﴿ والذى نزل من السماء ماء بقدَر فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ ﴿ وينزِّل من السماء من جبال فيها من برَد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ . ﴿ ولكن ينزِّل بقدَر ما يشاء ﴾ . . وكل ذلك إنما يكون فى الأوقات المحددة له أزلا بمقتضى الحكمة الربانية .

فليس ثمة رَيث ولا عَجل . وإنما هو تقدير إلهى وتحديد حكيم بالمكان والزمان والحال .

وكذلك الشأن فى جميع المقدرات الإلهية . كارسال الرياح ، وطلوع الكواكب وغروبها ، وبعث الرسل ، وإنزال الكتب ، والإيجاد والإعدام وغير ذلك لا يقع شىء منها فى الوجود إلا فى وقته المعلوم المقدر له أزلا قال تعالى ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدْرا ﴾ ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدَر ﴾ ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما نُنزِّله إلا بقدَر معلوم ﴾ ﴿ وخلق كل شىء فقدَّره تقديرا ﴾ ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حُسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وفى الحديث « كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » .

* * *

إذا علمت هذا فاعلم أن على العبد أن يكون فى المحنة التى تنزل به حسن الأدب مع ربه ، قائما بحق العبودية له سبحانه ، وذلك بالتحقق بالأمور الآتية :

الرضا بالقضاء

الأول — الرضا بالقضاء ، وهو درجتان أدناها — عدم السخط والاعتراض على حكم الله وتقديره حلوا كان أو مرًّا ، وهذا لابد منه لتحقق الإيمان ، وأعلاها — الابتهاج والمسرة بالقضاء كيفما كان [وسيأتى تمامه فى شرح البيت الثالث عشر] .

والرضا بالقضاء بدرجتيه مفتاح الفرج ، وباب الله الأعظم ، وأثره فى القلب السكينة والطمأنينة والانشراح .

قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا ابن عمران رضاى فى رضاك بقضائى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا » الحديث ، ومن رضيه ربًّا يرضى بحكمه وقضائه ولا يسخط عليه من حيث إنه مراده واختياره تعالى .

الصبر على البلاء

الثانى — الصبر على البلاء وهو تجرع مرارته من غير تعبيس وتقطيب ولا اشمئزاز وكراهية — أو هو سكون الخاطر فى حالتى المحنة والمنحة على السواء .

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وهو عنوان الفرج ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . فقال (الصبر والسماحة) . وقال تعالى فى عداد

البارّين . ﴿ والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ . وقال ﴿ ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ﴿ إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ ﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ . ﴿ ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ﴾ ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ . ﴿ وإن الله مع الصابرين ﴾ .

وفى صحيح مسلم « عجباً لأمر المؤمن. إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

حسن الظن بالله

الثالث ـ حسن الظن بالله . والرجاء فيما عنده من الخير الذى لا ينفد ، والرحمة التى وسعت كل شىء ، وفى الحديث القدسى . يقول الله تعالى « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » .

وضده سوء الظن بالله . وقد قال تعالى فى المنافقين . ﴿ وظننتم ظنّ السَّوء وكنتم قوما بُورا ﴾ . وفى المشركين ﴿وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ . وفيهم وفى المنافقين ﴿ الظانين بالله ظنّ السَّوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

التسليم لله تعالى

الرابع ـ التسليم لله تعالى . وهو الاستسلام والخضوع لحكمه تعالى وقضائه وهو مظهر صدق العبودية . قال تعالى ﴿ ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ . ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره

عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ . ﴿ومن أحسن دينامن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ والإحسان ـ بالأعمال الصالحة يأتيها مخلصا لله تعالى مطيعا .

الالتجاء إلى الله

الخامس ـ الالتجاء إلى الله . والركون إليه والتوكل عليه فى كشف الغمة . وهو اعتصام بالله واكتفاء به عما سواه . قال تعالى ﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم﴾ . ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ . ﴿عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ . ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

* * *

فمن رضى بالقضاء ، وصبر على البلاء ، وأحسن الظن بالله ،وأسلم وجهه إلى الله ، والتجأ فى ضرائه إلى الله ، واستجار به ودعاه ـ كشف عنه السوء بفضله ولطفه وحباه . وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . لايرد سائلا .ولايخيب آملا ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ .

* * *

ومَن غالب الشدائد والمحن بما بيَّناه فاز لا محالة بإحدى الحسنيين . إما الظفر بالمطلوب ، وإما الأجر والاحسان إذا فاته المرغوب . فيثيبه الله تعالى ويكفر ذنوبه . ويعوضه عما فاته بمثله أو بخير منه . فى العاجلة أو الآجلة ﴿ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ . ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾.

* * *

وإذا أيقن المبتلَى بذلك اطمأن قلبه ، وانشرح صدره ،وسكن جأشه ،ولم يبق فى نفسه موضع لذلك القلق والجزع . ولا لشىء من تلك الخواطر النفسية

والوساوس الشيطانية ﴿وإما ينزغنَّك من الشيطان نزْغٌ فاستعذ بالله إنه سميع عليم إن الذين اتقَّوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذاهم مبصرون﴾ .

وفى الحديث « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله ما عليه خطيئة » وذلك إذا تحقق بما قدمناه من الأمور .

وأى جزاء وإحسان أعظم من هذا ؟ ؟ .

* * *

على أنه لا جدوى للقلق والجزع بل هما شر وضر ، وعناء وشقاء ، وقد يكون محنة أخرى أفدح مما هو فيه إذا شابتهما شائبة الاعتراض على القدر والتبرم به ، وتلك البلية العظمى والعياذ بالله تعالى فإن الرضا بالقدر من أركان الايمان كما فى الصحيحين ، وفى مسند الامام أحمد « لا يؤمن المرء حتى يؤمن بالقدَر خيره وشره » .

* * *

ولتعلم ـ أيها العبد ـ أنه لن يغلب عسر يسرين ، وأن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن الله مع الصابرين ، وأن الفوائد قد تكمن فى الشدائد قال تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وقال ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيراً﴾ أى فى الدنيا أو فى الآخرة .

* * *

توقَّع صنعَ ربك سوف يأتى　　بما تهواه من فرَجٍ قريبِ
ولا تيأس إذا ما ناب خطْب　　فكم فى الغيب من سرٍّ عجيبِ

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه :

ولَربَّ حادثة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله فيها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرِجت وكنت أظنها لا تُفرجُ

دفع شبهة

ولا يذهبنَّ إلى الوهم أنا نريد بما قدمنا أن المسلم إذا أصابه مرض يرضى ويصبر ويستسلم فيدع الدواء والتداوى .

وإذا اعتدى معتدٍ على نفسه أو ولده أو ماله أو أهله أو على أيَّة حرمةٍ من حرماته يرضى ويصبر ويستسلم فلا يخاصمه ويدافعه بكل مافى الإمكان من وسائل الدفاع المشروعة .

وإذا هجم عدوٌّ على أرض الوطن يرضى ويصبر ويستسلم فلا يحاربه ويسترد الحق المسلوب بكل قوة .

وكيف نريد شيئاً من هذا وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم تداوى من مرضه وأمر بالتداوى فإنه تعالى كما خلق الداء خلق الدواء ، وأن الله تعالى شرع الحدود والأحكام والتقاضى لحفظ الحقوق ورد المظالم وردع الظالم، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأن من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، وشرع الله الجهاد للدفاع عن الإسلام وأهله ، وحرماته وأوطانه .

وإنما نريد أنه إذا نابته نائبة ونزلت به جائحة عليه أن ينزع من قلبه السخط على قضاء الله وقدره ، والتبرم بأمره وحكمه ، واليأس من رحمة الله وفرجه ويملأ قلبه إيمانا بالله ورضا بقضائه ، وصبرا على بلائه ويأخذ فى أسباب كشفها إذا كانت النائبة مما يستطاع دفعها متوكلا فى ذلك على الله تعالى معتمداً عليه فى كشفها . وقد علم أن التوكل لا ينافى الأخذ بالأسباب وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » جوابا لمن قال أتوكل فلا أعقلها ، وأن الله

النعم هبات رحمانية للساعين إليها

وأشار ثانيا ـ إلى أن هذه النعم الجمة هبات رحمانية لذوى الأنفس الزاكية من العباد المؤمنين الساعين لما ينفعهم فى دينهم ودنياهم بجدٍ وعزم ويقين .

وأما مايجريه الله تعالى من نعمه على عباده الجاحدين فهو استدراج وإملاء ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ، وهو متاع فى الدنيا قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، وهو فى الدنيا مسرة وجاه وهناء ، وفى الأخرى عناء وشقاء وبلاء .

قال تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ﴿ فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ﴿ فمهِّل الكافرين أمهلهم رُويدا ﴾ .

وكذلك العصاة والفساق والظلمة يُستدرجون بالنعم ويمهلون بالعذاب والبلاء إما لآخرة أمرهم أو ليوم تشخص فيه الأبصار ويؤخذ فيه بالنواصى والأقدام ، وفى الحديث « إن الله على للظالم فإذا أخذه لم يفلته ـ ثم تلا ـ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

للنعم والعطايا نفحات زاكية

وأشار ثالثاً إلى أن لهذه النعم والعطايا الإلهية والوفيرة التى ينعم الله بها على عباده المؤمنين نفحات طيبة زاكية ، يطهِّر بها أنفسهم من العوائق ، وينقذهم بها من البوائق ليحيوا حياة طيبه سرمدية فى دار النعيم ﴿ ولَنعم دار المتقين ﴾ .

وأشار رابعاً إلى أنه إذا كان الأمر كذلك فاحرص ـ أيها العبد المؤمن ـ على أن تتعرض لهذه النفحات ، وتهيأ لفيض هذه الهبات . باسطاً يد الرجاء والافتقار لهذه الامدادات ، واقصدها بالطلب ، واسع إليها برجاء وحسن ظن بالله وأدب ، لتنال من فيضها سعادة الآخر والأولى .

تعالى كما شرع المسببات شرع الأسباب وأمر بالجرى على سننه فى الخلق ، فاعرف ذلك واعمل به والله الموفق والمعين .

* * *

﴿ وفوائدُ مولانا جُمَلُ لِسُرُوحِ الأنفس والمُهَجِ
ولها أَرَجٌ مُحْيٍ أبداً فاقصد مَحْيَا ذَاكَ الأرَجِ ﴾

(فوائد) جمع فائدة وهى ما ينتفع به عاجلا أو آجلا ، والمراد نعمه تعالى (جمل) جمع جملة وهى جماعة الشيء والمراد أنها كثيرة عظيمة (لسروح الأنفس) السروح : إخراج الماشية بالغداة إلى المرعى ضد الرواح قال تعالى ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ والسارحة الماشية تسرح بالغداة إلى المرعى . والإضافة فيه من إضافة الصفة إلى الموصوف أى الأنفس السارحة وهو متعلق بفوائد (المهج) الأرواح جمع مهجة (ولها) أى للفوائد المذكورة (أرج) بالتحريك هو توهج ريح الطيب (محي أبدا) للأنفس والمهج (محيا) مفعل من الحياة أى مكان أو زمان (ذاك الأرج) .

لما بين الناظم أن المحنة تؤذن بالمنحة ، وأن عاقبتها خير ونعمة ـ إذا تحقق العبد بما تقدم من الأمور ـ أشار رحمه الله إلى ما يأتى :

نعم الله لا تحصى

فأشار أولا ـ إلى أن نعم الله وعطاياه كثيرة وافرة ، وخزائن فضله بما لا يحصى منها زاخرة عامرة ، لا تنقص ولا تنفد على دوام الإنعام وتوالى الإحسان قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ ، ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، ﴿ وما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ .

(سعة) بفتح أوله : يسار (حرج) بالتحريك : ضيق وإعسار (درك) بالتحريك أقصى قعر الشيء وجمعه أدراك ودركات (درج) جمع درجة وهى المرقاة ، والدركات فى النار والدرجات فى الجنة (المعايش) جمع معيشة وهى الحياة والمراد ما يعاش به فى الدنيا (العواقب) السعادة والشقاوة فى الآخرة (عوج) كعنب ضد الاستقامة .

السلطان الإلهى

ثم أيد الناظم ما تقدم بالاشارة إلى كمال إحاطة علمه تعالى ، وعظيم قدرته وبالغ حكمته . فى كل أقضيته فقال : إن جميع الخلائق فى قبضة قدرته تعالى وتحت قهره وسلطانه ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ خلقها بيده ، ودبرها بحكمته وقضى فيها بإرادته ، ولا يخرج شيء منها عن أمره ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ . ﴿إن ربك فعّال لما يريد﴾ . ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع ، ويعز ويذل ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ويمرض ويشفى ، ويسعد ويشقى ، ويثيب ويعاقب ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ ، ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾ ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسَبون أنهم مهتدون﴾ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ موزون بالعدل ، متقدّر بالحكمة ، جار على السنن المستقيم والنهج القويم لاعوج فيه ولا اختلال ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ﴿الذى أحسن كل شيء خلقه﴾ ﴿وكان أمر الله قدَرا مقدورا﴾ ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

* * *

﴿ فلَرُبَّتَما فاضَ المحيـاَ   بِبحور الموجِ من اللُّجَج ﴾

(وربّما) لغة فى ربما وهى تفيد التـكثير هنا بقرينة المقام (فاض) كثر (المحيا) محيا ذاك الأرج . وإسناد الفيض إليه مجاز والمراد فيض الأرج فى محياه ومظانه (الموج) ما ارتفع من الماء فوق الماء (اللجج) معظم الماء أو معظم البحر قال تعالى ﴿ فى بحر لجىّ ﴾ .

التعرض للنفحات سبب فيضها على العبد

أى فإذا امتثلت ما أوضحناه ، وسلـكت الطريق الذى رسمناه فتعرضت للنفحات والهبات الرحمانية راضياً . صابراً . راجياً . مسلماً وجهك إلى الله. متوكلا عليه كما هو شأن المتقين فإنه يغمرك غزير فيضها ويعمك سابغ فضلها البالغ فى كثرته وعظمه مبلغ البحور الزاخرة ، ذات الأمواج المتلاطمة واللجج المتعاظمة.

ومن ذلك تفريج الـكربة وإزالة العسرة قال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ . ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ . ﴿ إن المتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذَّاباً جزاءً من ربك عطاء حساباً ﴾ ﴿ إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون) (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) .

﴿ والْخَلقُ جميعاً فى يده   فذوُو سَعة وذوُو حَرَج
ونُزولهُــــمُ وَطُلُوعهُمُ   فإلىَ دَرَك وَعَلَى دَرَج
وَمعايِشُهمْ وَعواقِبُهـــمْ   ليست فى المشى على عِوَج ﴾

باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار ﴾ .

وأما حديث تعلقها بالعباد وتأثرهم بها وتفاوتهم فيها فهى متفاوتة بحسب تفاوت أحوالهم وشئونهم .

وأشار الناظم بقوله (حكم نسجت بالمتسج) إلى شدة تعلق هذه المقدرات بالعباد المقضى عليهم بها وأنه لا انفكاك لهم عنها ولا لها عنهم وأنه لاقوام لشئونهم المعاشية والمعادية إلا بها ، كما أنه لا انفكاك للسدى عن اللحمة ولا للحمة عن السدى فى الثوب المنسوج ولا قوام له إلا بهما معا .

فليس شىء من هذه الشئون إلا بقضاء وتقدير وحكمة وتدبير من الحكيم الخبير .

* * *

وظاهر أن الرضا بالمقدر مع كونه واجباً من حيث صدوره عن المدبر الحكيم لايمنع الدعاء بكشف البلاء والضراء فقد يكون الكشف معلقاً عليه.

ومما ورد فى باب الدعاء أنه ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وأنه « لا يرد القضاء إلا الدعاء » وقد أمر الله تعالى به فقال : ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ ووعد بالإجابة فقال ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم ربه دعوات بليغات فى الشدة تفوق الحصر .

﴿ فإذا اقتصدَتْ ثم انعرَجتْ فبِمقتَصِدٍ وبِمُنْعرِجِ ﴾

(اقتصدت) اعتدلت من القصد وهو العدل بمعنى التوسط (انعرجت) مالت عن القصد والضمير فيها للمقدرات الإلهية المذكورة قبله (فبمقتصد وبمنعرج) يجوز ضبطهما بفتح الصاد والراء ، والباء للظرفية أى فاقتصادها وانعراجها واقعان بموضع الاقتصاد وبموضع الانعراج المناسبين لهما ، وضبطهما

فعلى العبد الشكر على السراء ، والصبر على الضراء ، والرضا بالقضاء ، والتسليم والالتجاء ، فى كل أمر لرب الأرض والسماء ، وأن يدوم بين الخوف والرجاء ويخلص له تعالى العبادة والدعاء وهو سبحانه ولى الأتقياء الأصفياء .

﴿ حِكَمٌ نُسِجَتْ بيدٍ حكَمَتْ ثم انتسجَتْ بالمُنْتَسَجِ ﴾

(حكم) خبر لمبتدأ محذوف أى تلك المقدرات حكم وصواب (نسجت) ألحمت بالبناء للمفعول والفاعل هو الله تعالى كما يشير إليه قوله (بيد حكمت) أى قضت بها أو بذلك النسج ، والنسيج الالحام بين السَّدى واللُّحمة (ثم انتسجت) أى فانتسجت والتحمت . مطاوع نسجت نحو كسر فانكسر (بالمنتسج) بفتح السين وهو فى الأصل الثوب المنسوج ، والمراد هنا كما قال شيخ الإسلام العبد المقضى عليه بتلك المقدرات .

اقتران التقدير الإلهى بالحكمة

إذا علمت ماسبق فاعلم أن جميع المقدرات الإلهية من نحو ماذكرنا من السعة والضيق ، والسعادة والشقاوة ، والمعايش الدنيوية والعواقب الأخروية لاتصدر عن البارىء عزَّ شأنه إلا لحكم تقتضيها وتترتب عليها فكلها حِكم وصواب وسداد قضى بها الحكيم العليم أزلا وأجراها على العباد فيما لايزال وافقت أغراضهم أم لا .

ولاريب أن هذه المقدرات جميعها مستوية من حيث كمالها وحقِّيتها فى ذاتها وابتناؤها على العدل والحكمة وذلك لثبوت الكمال المطلق له سبحانه فى ذاته وصفاته وأفعاله الذى يقتضى أن لايصدر عنه تعالى إلا ماهو كمال وحق وعدل وحكمة (وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين) (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك) ، (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما

يسلم الأمر كله لمن له الأمر والتدبير تسليم رضا وإذعان وقبول وإن جهل الحكمة أو لم يوافق القدر غرضه وهواه .

﴿ شهدَتْ بعجائبها حُجَجٌ قامت بالأمر على حِجَجِ ﴾

(بعجائبها) أى المقدرات (حجج) بضم ففتح : أدلة وبراهين (حجج) بكسر ففتح : سنين .

* * *

دلالة عجائب المقدرات على الوحدانية

وفى هذه المقدرات الإلهية وسائر الشئون الربانية عجائب تنطق بوحدانية الخالق وإحاطة علمه وكمال قدرته وبديع صنعته وبالغ حكمته (تسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحَهم أنه كان حليما غفورا) وتشهد بها الأدلة والبراهين القاطعة المتواترة فى كل حال وحين .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فإذا عرف المؤمن ذلك ازداد إيمانه ، وقوى بالله يقينه ، وكان من أمره على بصيرة وسداد .

﴿ ورضاً بقضاء الله حَجِى فعلَى مركوزته فعُج ﴾

(الرضا) ضد السخط (حجى) بفتح فكسر بمعنى خليق وجدير ، أو بكسر ففتح بمعنى عقل (مركوزته) أى القضاء يريد بها مركز دائرته وهو الإرادة الإلهية (فعج) الفاء زائدة وعج أمر من عاج عوجا ومعاجا أقام لازم

شيخ الإسلام بالكسر ، والمراد بهما العبد المقضى عليه بهذه المقدرات ، والباء فيهما للملابسة أى فاقتصادها وانعراجها متعلقان بالعبد لمناسبة حاله لها ، والمآل فى الضبطين متقارب .

تنوع المقدرات الإلٰهية

أى فإذا علمت ماقدمناه فاعلم أن المقدرات الإلهية مع كونها كلها فى الواقع صواباً وسداداً فى كل أمر وحال فإن الحكمة الربانية تقتضى التناسب التام بينها وبين مواضعها ومتعلقاتها ، والمواضع فى الجملة لاتخرج عن وسط وطرفين ففى المواضع التى يناسبها الاعتدال والتوسط تكون المقدرات (مقتصدة) أى متوسطة وفى المواضع التى يناسبها الاكتمال تكون (مكتملة) فوق المتوسطة وفى المواضع التى يناسبها الميل عن القصد تكون (منعرجة) دون المتوسطة .

فلكل موضع تقديرٌ ولكل تقدير حكمة وتدبير والله بكل شيء محيط ، ومن ذلك التقديرُ فى الأرزاق فإنه بالسعة لفريق ، وبالضيق على فريق كما قال تعالى ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ وذلك لأن الحكمه تقتضى السعة فى الموضع الذى لايصلح فيه الضيق، والضيق فى الموضع الذى لاتصلح فيه السعة قال تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزِّل بقدرٍ مايشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ .

بل لكل من السعة والضيق درجات ومراتب فقد تقضى الحكمة فى السعة البسط الكثير على عبد ، والوسط على آخر ، والأدنى على ثالث .

وكذلك الشأن فى درجات الضيق ومرتبه .

والحاصل أن المقدرات الإلهية حكيمة فى ذاتها ، وفى مواضعها وتعلقاتها بالمحكوم عليهم بها فى كل شأن وحال فعلى العبد أن يكون على يقين من ذلك وأنه

والطاعات ، ومنه ماهو مكروه منهى عنه كالكفر والمعاصى ، والكل مخلوق له تعالى واقع بإرادته إذ ثبت بالدليل القطعى أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ، والرضا بالنوع الأول واجب وبالثانى محرم قال تعالى ﴿ أمَر أن لاتعبدوا إلا إياه ﴾ ﴿ وأمِرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ ، ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ . ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ . ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ . ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ . ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ .

وقال حجة الإسلام الغزالى : إن الشر والخير داخلان فى المشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى . اهـ .

وسئل أبو سعيد الخراز « هل يجوز أن يكون العبد راضياً ساخطاً . أى بالنسبة إلى أمر واحد مقضى به » فقال نعم يجوز أن يكون راضياً عن ربه ساخطاً على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله تعالى اهـ

أى أنه يرضى بالمقضى به من حيث إنه مراده تعالى واختياره ويكرهه ويمقته من حيث إنه كسب العبد ووصفه . والفعل ينسب إلى الله تعالى إيجاداً وخلقاً ، وإلى العبد كسبا وتحصيلا فلا تنافى بين الرضا بالمقضى من جهة وعدمه من جهة أخرى كالكفر والمعاصى .

كما أنه لاتنافى بين الرضا بالقضاء وإظهار البلاء إذا كان على سبيل الشكر على اللطف فيه لا على سبيل الشكوى والتبرم به .

فأعط كل مقام حقه ولا تكن من الغافلين .

﴿ وإذا انفتحتْ أبوابُ هُدَى فاعجَلْ لخزائنها وَلِجِ ﴾

(فاعجل) فاسرع (لج) ادخل أبوابها أمر من الولوج وهو الدخول .

ويتعدى ومنه فى حديث أبى ذر « ثم عاج رأسه إلى المرأة فأمرها بطعام » أى أماله إليها والتفت نحوها ، والمعنى فعلى العلم بأن مصدره الإرادة الإلهية أقم واثبت أو أقم قلبك .

معنى الرضا بالقضاء

تقدم فى شرح البيت الثالث أن الرضا بقضاء الله تعالى وتقديره يطلق بمعنى عدم السخط والاعتراض عليه حلواً كان أومُرًّا وأن ذلك ضرورى لتحقق الإيمان ويطلق بمعنى الابتهاج والمسرة كيفما كان وهو المراد هنا ، وهو معنى قولهم : الرضا إخراج كل كراهية للقضاء من القلب حتى لايكون فيه إلا الفرح والسرور به ، أو هو سرور القلب بمرِّ القضاء كحلوه . أوهو استقبال الأحكام الإلهية بالفرح .

سئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المسيئة كما تسره النعمة .

وقال بعض السلف : لوقرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلى من أن أقول لشىء قضاه الله تعالى : ليته لم يقضه .

والرضا بهذا المعنى مرتبة أعلى ودرجة أرفع من الرضا بالمعنى الأول لايبلغها إلا أرباب المقامات وذوو النهايات . والجدير بالعارف أن يكون لها طالبا وبها متحققاً إذ هى سنام الرضا وذروته ، وإن شئت قلت إنها مقصد العقول السليمة والهمم العالية والنفوس الزاكية فعليها أيها العارف عُجْ واثبت.

* * *

أما القضاء فيطلق تارة على الحكم الإلهى وهو فعله تعالى ، وتارة على نفس الأمر المقضى به ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء » ، وهو بهذا المعنى منه ماهو مرضى مأمور به كالإيمان

وقال أبو القاسم الجنيد «النفس الأمارة بالسوء هى الداعية إلى التهلكة ، المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى ، المهتمة بأصناف الاسواء .

وكذلك من أقوى العوائق عن بلوغ تلك الغايات اتباع خطوات الشيطان ووساوسه ، وآثاره ودسائسه فإنه كما ورد ليجرى من ابن آدم مجرى الدم وينكت فى قلبه نكتة سوداء فيضله ويغويه ، وبالشهوات والمفاتن يغريه ، فيهلكه ويرديه إلا من عصمه الله تعالى قال تعالى (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) . (إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين) . (إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) . (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين).

وفى الآيات والأحاديث من التحذير منه ومن فتنته مالا يحصى فاحرص على مخالفته ومراغمته وطرده والاستعاذة بالله من شره وكيده والله يتولى هداك .

﴿ وإذا حاولتَ نِهَايَتها فاحذَرْ إذ ذاك من العَرَج

لتكون من السُّبّاق إذا ما جئتَ إلى تلك الفُرَجِ ﴾

(نهايتها) غاية الهدى وهو يؤنث ويذكر (العرج) مشية غير معتدلة بسبب إصابة فى الرجل (السباق) السابقين (الفرج) بضم ففتح : النواحى . وفى اللسان : فروج الأرض نواحيها .

وجوب رضا العبد بما أقيم فيه

أى وإذا ولجت أبواب الهدى . وبلغت ما قدر لك من تلك الأحوال السنية والمقامات العلية فاثبت فيما أقامك الله فيه فإنه مراده تعالى منك واحذر أن

المبادرة إلى أبواب الهدى وخزائنه

أى وإذا تحققت بمقام الرضا بالقضاء فى المحبوب والمكروه على السواء وانقشعت عن نفسك الحجب وزالت العوائق المانعة لها عن نيل المقامات السنية والمعارف الربانية وانفتحت لك أبواب الهداية فأسرع بالدخول بعزم وجد وثبات لتنال من خزائنها ما به تنعم وتسعد ، وإياك والإبطاء والتسويف فإنه قد يهجم عليك الموت ، ويحصل الفوت فتحرم الخير وتندم . ولاتَ حين مندم .

* * *

مجاهدة النفس والهوى والشيطان

وإذ كان من أقوى العوائق عن بلوغ هذه المقامات والمعارف ـ نفسك الأمّارة بالسوء إذا تركتها سائمة فى مراتع الشهوات ، رانعة فى مباءة اللذات وانقدْت إليها فيما تزينه من المهلكات فاحرص كل الحرص على كبح جماحها وعصيان أمرها ومخالفة هواها ، وحاذرها وجاهدها وذلك هو الجهاد الأكبر. وهو باب من أبواب الهدى بل هو رأس العبادات ومفتاح السعادة قال تعالى (إن النفس لأمّارة بالسوء إلا مارحم ربى) . (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) . (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال صلى الله عليه وسلم « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » ، وقال « أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فينسى الآخرة » .

وقال سهل بن عبدالله « ما عبدالله بشىء مثل مخالفة النفس والهوى » اهـ

بهجة العيش المبتهجين والمتهجين

أى فإذا بلغتَ تلك الغُرف السنية وحللت دار المقامة العلية فهناك الحياة الطيبة النضرة الدائمة للعارفين ﴿وإن الآخرة لِهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ .

وهم فريقان : المبتهجون المسرورون بما ذاقوا من لذائذ التجلى والشهود وهم المقرَّبون أهل صفو اليقين الذين قاموا بحقوق مولاهم عبودية له وطلباً لمرضاته وقال الله تعالى فيهم ﴿فأما إن كان من المقرَّبين فَرَوْحٌ وريحان وجنة نعيم﴾ .

والفريق الثانى ـ المتهجون طريق التقوى ، المتنقلون فعلا وحالا فى معانيها الظاهرة والباطنة الموصلة إلى صفو اليقين الموجب لذلك الابتهاج وهم الأبرار الزهاد الذين أقيموا فى الأعمال الصالحة ومقامات اليقين ليجزوا على مجاهداتهم رفيع الدرجات قال تعالى ﴿إن الأبرار لَفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نَضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقرَّبون﴾ .

وماسوى هذين الفريقين لاحظ لهم فى ذلك العيش البهيج بل هم إما هلكى أو فى خطر عظيم ، فاحرص كل الحرص على أن تكون أحد ذينك الفريقين .

وفى هذا البيت تشويق عظيم إلى جنات النعيم وعيشها البهج المقيم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون﴾ .

﴿فَهِجِ الأعمالَ إذا ركَدَتْ فإذا ما هِجْتَ إذًا تَهِجِ﴾

(هج) أمر من هاج الشىء أثاره وحركه وهاج الشىء : ثار وتحرك ، متعد وغير متعد (ركدت) سكنت والمراد قلت أو ضعفت .

تختار لنفسك الانتقال عنه إلى حال أو مقام آخر أرفع منه حتى ينقلك الله إليه فإنك إذا اخترت ذلك لنفسك ولم ترض بما أقامك الله فيه وآثرت اختيارك على اختيار الله لك فقد أسأت الأدب مع ربك وحُرمت الوصول إلى مطلوبك.

قال بعض العارفين « منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا نقلنى إلى غيره فسخطته » .

وقال ابن عطاء الله « كن عبداً لله فى كل شيء عطاء ومنعاً ، وفقدا ووجداً، وفناء وبقاء إلى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات الأغيار اهـ فإذا حذرت ذلك تكون من السابقين إلى فُرَج الجنة .

(فإذا قيل) هل طمع العبد فيما عند مولاه من رفيع الدرجات ورجاؤه فى نيل الأعلى من المقامات يعدُّ من إساءة الأدب مع مولاه ؟؟

(فالجواب) كلاَّ بل ذلك يحمد منه إذا خلا عن رعونة النفس وحظوظها وخلصت النية فيه لله تعالى مع الرضا بما أقامه الله فيه وعدم التبرم به والتسليم له تعالى فى الأمر كله بحيث إذا أبقاه فى مقامه هذا ولم ينقله عنه بقى على رضاه ولم يستشعر الميل لخلافه لحظ نفسه وشهوتها ، وإذا نقله عنه إلى مقام آخر أكمل رَضِى به وحمد الله عليه وشكر له منته فالمدار على تجرد العبد فى ذلك عن الرعونات والحظوظ والشهوات ، وعلى الاخلاص فى النيات لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيطلب الأعلى للمزيد من القرب والرضا ، مع الرضا بما أقيم فيه إذا لم ينقل عنه والله أعلم .

﴿ فهناكَ العيشُ وبهجَتُه فَلِمُبتَهِجٍ ولمُنتَهِجٍ ﴾

(فهناك) أى فى تلك الفرج (البهجة) الحسن والنضارة (المبتهج) المسرور (المنتهج) السائر فى الطريق الواضح وهو المتقى لله تعالى ، والفاء زائدة والجار والمجرور خبر قوله العيش ، وهناك ظرف له .

التوبة من المعاصي والترغيب فى الطاعات

ثم أشار الناظم بعد ذكر مقامات ذوى النهايات إلى أول مقام أهل البدايات وهو (التوبة من معاصى الله) إذ المعاصى كفر بنعمه وجحود لمننه وإباء لطاعته ومحادة لله ولرسوله فقال: إن المعاصى قبيحة مرذولة، وفاحشة ممقوتة لا يستحسنها ويميل إليها إلا ذوو الطباع السقيمة والأخلاق الرديئة فيجب التوبة منها، والاقلاع عنها، والندم على وقوعها، والعزم على عدم اقترافها قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون ﴾ ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴾ ﴿ إن الله يحب التّوابين ويحب المتطّهرين ﴾ .

* * *

ثم رغّب فى طاعة الله إذ أنها شكر للنعم وإقرار بالمنن وخضوع وانكسار وامتثال لأمر الواحد القهار فقال: إن الطاعة جميلة مستحسنة، وضيئة مشرقة يعشقها ذوو الطباع السليمة والأخلاق القويمة. بها تزكو النفوس وتستنير القلوب وتنضر الوجوه، وهى تورث أهلها هناء عظيما ونعيما مقيما وعيشا كريما قال تعالى ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ ﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ ﴿ وجوه يومئذ ناعمة لسعيها

وجوب المثابرة على الأعمال الصالحة

وإذا علمت أن العيش الرغيد النضر لذينك الفريقين إنما هو فى الجنة ، ومعلوم أن سبيله الأعمال الصالحة فأكثر منها قدر الطاقة ولا تركن إلى الدّعة والراحة منها فقد يفضى ذلك إلى تركها فإذا شعرت من نفسك بالميل إلى ذلك فبادرها بالجِدّ فى العمل والمثابرة عليه وذكّرها غايته وما يترتب عليه من الملك العظيم والنعيم المقيم فعند ذلك تهيج وتنشط حتى يصبح ذلك ديدنها وعادتها بحيث تستأنس به وتستوحش من تركه ، وإن لم تفعل ذلك كان نصيبك الحرمان من ذلك النعيم .

وقد ورد أن الله لا يمل حتى تملوا وكان أحب الدّين إلى الله ما داوم عليه صاحبه فانشط للعبادة واعمل بقدر الطاقة حتى لا تملها وتجد الراحة فى تركها والراحة من الأعمال فى الأولى ـ عناء وتعب فى الآخره ، والطاقة فى الناس مختلفة جداً فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه .

وكان الإمام على زين العابدين رضى الله عنه يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، وعن الجنيد أنه كان يدخل حانوته كل يوم ويسبل الستر ويصلى أربعمائة ركعة وإذا كنت لا تطيق ذلك فاعمل قدر طاقتك بالطاعات وثابر عليها والله الموفق .

﴿ ومعاصِي الله سماجتُهـا تزدَانُ لذى الُخلق السَّمِج

ولطاعتِـــه وصبـاحتِها أنوارُ صباحٍ مُنْبَلِـج ﴾

(السماجة) القبح (تزدان) تتزين (الصباحة) الجمال (منبلج) مضىء مشرق .

تسعد فى آخرتك وتكون من الناجين ومن أهل النعيم المقيم ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

﴿ واتلُ القرآنَ بقلبٍ ذي حزَنٍ وبصوتٍ فيه شَجِى
وصلاةُ الليل مسافتُها فاذهب فيها بالفهم وَجِى
وتأمَّلْها ومعانيَها تأتِ الفردوس وتنفرجِ ﴾

(ذى حزَن) حزين (فيه) فى تلاوته (شجى) حزين رقيق صفة لصوت (مسافتها) مسافة التلاوة فيها (تأملها) أى التلاوة فى الصلاة (الفردوس) أوسط الجنة ومنه تفجر أنهارها (تنفرج) تذهب عنك الهموم .

فضل تلاوة القرآن وآدابها

ومن أجلّ الطاعات وصالح الأعمال التى لها ذلك الجزاء الموفور تلاوة القرآن . ومما ورد فى فضله أنه لا فقر بعده ولا غنى دونه ، وأنه يشفع يوم القيامة لأصحابه ، وأن الذى يقرؤه وهو به ماهر مع السفرة الكرام البررة والذى يقرؤه ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران ، وأن فضله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وأن الله عز وجل يقول : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفى الحديث « نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن ، وكل مؤدب يحب أن تؤتى مأدبته ومأدبة الله القرآن فلا تهجروه » وأفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن» وهى جلاء القلوب وشفاء الصدور وحبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، من علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به هُدى إلى صراط مستقيم .

ومن آداب تلاوته أن تكون مفسرة حرفا حرفا مرتلة ترتيلا بخشوع

راضية فى جنة عالية لاتسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) .

وأعظم من ذلك كله النظر إلى وجه الله الكريم فى الجنة وهو الزيادة فى قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

﴿ من يخطب حُورَ الخلد بها يظفرْ بالحُورِ وبالغُنُج
فكن المرضىَّ لها بِتُقَي ترضاه غدًا وتكون نجى ﴾

(حور الخلد) نساء الجنة (بها) بالطاعات (بالغنج) بضمتين أى بذوات حسن الدل والغزل (بتقى) بسبب تقوى الله تعالى (نجى) نجيا من المكاره وقف عليه بالسكون على لغة ربيعة . للضرورة .

التشويق إلى الطاعات بما فى الجنة من الحور العين

ولما كانت الطاعات سبيل العيش الهنىء فى جنة الخلد رغب الناظم فيها وشوق إلى ذلك النعيم المقيم فقال : إن من أعظم نعيم الجنة ما خلق الله فيها من الحور العين اللاتى وصفهن بقوله (حور مقصورات فى الخيام) (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان) (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) (وزوجناهم بحور عين) (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين) . (عرُبًا) متحببات إلى أزواجهن (أترابا) مستويات فى السن .

* * *

فإذا أردت أيها العبد خطبتهن فمهورهن الطاعات والتقوى فغالِ فى المهر وأكثر منه تظفر بهن وتنعم بحسنهن ودلهن وما فيهن من جمال وكمال .

وكن الكفء المرضى عندهن بهذه الطاعات وبتقوى الله تعالى ، وبذلك

﴿ واشربْ تسنيمَ مفَجَّرها لا ممتزِجاً وبِمُمْتزَجِ ﴾

(التسنيم) عين فى الجنة يشرب منها المقربون (مفجرها) بفتح الجيم المشددة أى ما يتفجر من الفردوس (لا ممتزجا) غير مخلوط بغيره .

الجزاء على الطاعات بالشرب من التسنيم

ومن تمام ذلك النعيم جزاء على تلك الطاعات التمتع فى الجنة بشرب التسنيم المفجر من الفردوس وهو أرفع شراب فى الجنة يشربه الأبرار ممتزجا بغيره والمقربون صرفا غير ممتزج .

قال تعالى ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ وقال ﴿ ويُسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ﴾ وقال ﴿ يُسقَون من رحيق مختوم ختامه مسك ﴾ ثم قال ﴿ ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾ أى منها وقال تعالى ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ .

اللهم امنن علينا بالجنة ونعيمها، واسقنا من عين تسنيمها بجاه أفضل الخلق وأكرم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ مُدِحَ العقلُ الآتيه هدًى وهوًى متوَلٍّ عنه هُجِى ﴾

(الآتيه هدى) الذى أتى ما ذكر من الطاعات لأجل الهدى والدلالة على الطريق المستقيم ، أو الآتى هو حال كونه هدى (متول عنه) معرض عن الهدى (هجى) ذمّ وقبح .

وتدبر وتفهم وحضور قلب ورهبة واستعظام . مجوّدة محسنة بصوت فيه ترقيق كصوت الحزين .

قال تعالى ﴿ورتّل القرآن ترتيلا﴾ (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وفى الحديث « زينوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » وفيه «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » أى من لم يحسّن الصوت به ، بشرط ألا يخرج عن حدود التلاوة المأثورة .

* * *

قيامُ الليل بالصلاة

وكذلك من أجلّ الأعمال الصالحة نافلةُ الليل ففى الحديث «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد ؛ ومنهاة عن الإثم » رواه الترمذى .

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ياأيها المزمل قُم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾ أى فى نافلة الليل ﴿إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا﴾ ﴿ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلا طويلا﴾ ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً﴾

ونافلة الليل عظيم فضلها . جليل قدرها . مطلوب فيها الاكثار من التلاوة وقد صلى عليه الصلاة والسلام بطوال المفصل ، فأكثِر فيها التلاوة وخصها بمزيد حضور وتفهم ، وتدبر وتأمل لتتم لك لذة المناجاة وتفيض عليك العلوم والمعارف وتفوز بأوسط الجنة وتنفرج عنك فى الدنيا الغموم والهموم والله الموفق .

﴿ وكتابُ الله رياضتُـه لعقول الخلق بمُنْدَرِج ﴾

(رياضته) تعليمه وتأديبه وإرشاده . (بمندرج) أى كائنة بطريق واضحة يندرج فيها الناس لصحتها ووضوحها ، مِن درج القوم وا ندرجوا إذا مضوا لسبيلهم أى بدلائل قوية واضحة :

رياضة العقول بالقرآن العظيم

قدمنا القول فى فضل تلاوة القرآن وآدابها وأنها من أفضل الطاعات وأعظم العبادات ، ونزيد هنا ترغيبا فيها وحثا عليها بيان أثر القرآن العظيم فى تهذيب النفوس وتربيتها ، وتعليمها وإرشادها فإن فى آياته البينة ، وأمثاله الحكيمة وعظاته البليغة ، ودلائله الواضحة ، وحججه الدامغة ، وعلومه النافعة وتعاليمه الراشدة ، وتوجيهاته الصادقة ، وهدايته إلى سبل السعادة . وتحذيره من طرق الغَواية . وتصريف آياته بأساليب محكمة أمر ونهى وخبر واستخبار وقَصص وعِبر ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ـ تعليما وتهذيبا ، ورياضة للنفوس وتنبيها ، وعلما وبصيرة، ونورا وهدى ، وعصمة من الشر والردى لمن تأمله وتدبره ، واعتبر به وتذكره وأخذ به فى كل أمر زمام نفسه حتى تسير على النهج القويم قال تعالى ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عِوج ﴾ ﴿ قد جاءكم من الله نور ، وكتاب مبين يهدى به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ ﴿ ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾ ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾ ﴿ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ .

مدح العقل وذم الهوى

العقل والهوى ضدان متنافران (فالعقل) نور يهدى إلى الخير والصلاح، ويرشد إلى سبل الفلاح، ويبصر بعواقب الأمور، يحذر من المضار والشرور، (والهوى) مضلة فى بيداء مهلكة، وغيابة فى مهواة مظلمة، يحبب إلى النفوس الشهوات والرذائل. ويكرّه إليها المراشد والفضائل.

ولذا مدح الله العقل ومستعمليه، وذم الهوى ومتبعيه فى غير ما آية من الكتاب بأساليب منوعة حكيمة فقال تعالى ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ ﴿إن فى ذلك لَعبرة لأولى الأبصار﴾ ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ ﴿أفلا تعقلون﴾.

وقال تعالى فى ذم الهوى ﴿أفرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾ ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرُطا﴾.

* * *

فحكّم عقلك واستعمله فى كل ما تأتى وتذر، واطرح هواك فى أى أمر قل أو كثر، فما حكم العقلَ أحد إلا ظفر، وما حكم الهوى أحد إلا خسر.

وحسب العقل شرفا أنه مناط التكليف بالشرائع والأحكام من رب العالمين، وأهله أهل السعادة فى الأولى وأولو الأمر والولاية والخلافة فيها، وأهل الجنة والنعيم فى الآخرة.

﴿ وخِيارُ الخلق هُدَاتُهُمْ   وسواهم من هَمَج الهَمَج ﴾

(الهمج) جمع همجة : الشاة المهزولة أو الذباب الصغير يسقط على وجوه الدواب .

فضل العلم والعلماء العاملين

وأفضل الناس هم العلماء العاملون الذين يهدون الخلق إلى طريق الحق والفلاح . ويرشدونهم إلى سبيل الهدى والصلاح . ويذودون عن بيضة الإسلام بالحجة والبرهان قطعا للشكوك والأوهام .

وهؤلاء هم حراس الشريعة وأمناؤها ومنهم المجددون على رءوس المئين من السنين وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ وقوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقوله ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقوله ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقوله ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾

وعناهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه والدارمى عن كثير بن قيس عن أبى الدرداء) .

* * *

وقد تعبدنا الله بهذا الكتاب العربى المبين وأوجب علينا اتباعه والعمل بما جاء به فى كل شأن من شئون الحياة ، فى العبادات والمعاملات والأحكام والأخلاق وسياسة الرعية ورعاية المصالح ، فى الدين والدنيا ، فى الحرب والسلم فى علاقات الأفراد والجماعات بعضهم مع بعض ، وفى علاقات أمة الإسلام بغيرها من الأمم ، فى تحديد الحقوق والواجبات ، فى غير ذلك ، وحذرنا أشد التحذير من مخالفته وعصيانه بما ضرب من الأمثال وأخبار الأمم الماضين الذين ضلوا سبيل الله فكانوا من الهالكين .

فكتاب ربنا سبحانه هو الدستور الأعظم والإمام المقتدى . والحجة والبرهان ، هو الحق المبين والصراط المستقيم ، هو الفيصل بين الحق والباطل والهدى والضلال ، هو الذى لا يصلح أمر المسلمين فى أى زمان إلا به ولا يظهرون على أعدائهم إلا بانتهاج سبيله فمن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، ومن أعرض عنه وتولى فإن له معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى وبئس المصير .

فهل يصح بعد هذا من أى أمة تنتسب إلى الإسلام أن تولى وجهها شطر أعداء الإسلام وتلتقط من فضلات موائدهم الدساتير والنظم والأحكام بما فيها من الفساد والخلل والضلال والحرام وتؤثرها على كتاب ربها وهدى نبيها عليه أفضل الصلاة والسلام ؟ ؟ .

أفيقوا أيها المسلمون من هذه الغفلات ، واقمعوا أنفسكم عن هذه الشهوات والضلالات ، وتبصروا فى سوء العواقب قبل الفوات (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) .

اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه ، وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه واحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا واهدنا إلى صراطك المستقيم .

﴿ وإذا أَبصرتَ منار هُدىً فاظْهَرْ فَردا فوق الثَّبَج ﴾

(منار هدى) موضع نور أو علَم هداية (فاظهر) فاعلُ على ظهر (الثبج) وهو وسط الشيء ومعظمه أى ثبج المنار .

الحث على طلب أعلى الدرجات

وإنك بعد الجد فى العلم والمثابرة على العمل وقطع العلائق بالعوائق ومواطن الزلل إذا شمت بروق العناية وأبصرت بعينى بصيرتك منار الهداية إلى طريق السعادة فاعمد إلى تسنم ذروته واقتعاد عاليته لتتمكن منه وتكون من المختصين به ولا تقف همتك دون ذلك فإنه قصور أو تقصير وكلاهما معيب والله الموفق لمعالى الأمور ، وقوله « فردا » تتميم لا محترز له .

* * *

وقدمنا أن طلب العبد الانتقال مما أقامه الله فيه إلى ما هو أعلى درجة لا خطر فيه إذا تجرد عن رعونة النفس وحظوظها وشهواتها وأخلص النية فيه لله وحده وقصد الفوز بقربه ورضاه تعالى .

﴿ وإذا اشتاقت نفسٌ وجدَتْ أَلماً بالشوق المعتَلِج ﴾

(الاشتياق) ميل النفس إلى المحبوب ميلا تحرق به الأحشاء بحيث لا يسكن باللقاء (وجدت ألما) أصابها ألم لم يكن لها من قبل (المعتلج) الشديد .

لذة الاشتياق وألمه

وإذا تسنَّمتَ منار الهدى وتمكنت منه حتى سطعت فى قلبك أنوار العلم والعرفان أفعم قلبك بمحبة الله والاشتياق إلى لقائه تعالى .

وغير هؤلاء همج من الخلق لا خير فيهم لا لأنفسهم ولا للناس .

فمنهم الجهال الذين عموا وصموا فلم يعرفوا حقا ولا معروفا فكانوا بالأنعام أشبه .

ومنهم الذين اتسموا بسمة العلماء ولكنهم عن العمل بالعلم معرضون ، وباضلال العامة مفتونون ، طمعا فى عرض زائل أو جاه زائف أو شهرة كاذبة ومنهم الذين مارسوا قليلا من العلم فلم يستوعبوه نظرا ولم يتعمقوا فيه بحثا فلم يحصلوا منه على كبير طائل ، وكبر عليهم أن يعرفوا بالتصدر فإذا سئلوا ولم يعلموا أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وقالوا على الله مالا يعلمون .

وكل هؤلاء على خطر عظيم وهم المعنيون بالذم فيما ورد من الآيات والأخبار وجاء على لسان الأئمة الأخيار .

﴿وإذا كنتَ المقدامَ فلا　　تجزَعْ فى الحرب من الرَّهَجِ﴾

(المقدام) الكثير الإقدام الشجاع (الجزع) ضد الصبر (الرهج) الغبار .

الجد فى العلم والعمل والصبر عليهما

ثم أشار إلى وجوب الجد فى العلم والمثابرة على العمل والصبر فى الجهاد للتغلب على العوائق التى تحول دونهما فقال : إذا جاهدت نفسك والشيطان وكنت المقدام فى الحرب والطعان فتدرع بالصبر والثبات ولا تجزع مما ينفثانه من الوساوس ويدبرانه من الدسائس ليصداك عما أنت بسبيله من الجد فى العلم النافع ، والمثابرة على العمل الصالح ابتغاء رضوان الله وطمعاً فيما عنده من المثوبة فإن كل ذلك لا يلبث أن تذروه الرياح ويتطاير كالشرر والهباء إذا ما وثقت بالله ، واستعنت به ، وركنت إليه ، وصبرت فى حلبة الجهاد والله ولى المؤمنين ونصير المجاهدين .

﴿ وعِيابُ الأسرار اجتمعتْ بأمانتِها تحتَ الشَّرَج ﴾

(عياب) حقائب وهى أوعية تصان فيها الأمتعة وتطلق العيبة على موضع السر (الأسرار) ماحجبه الله عن خلقه ولم يطلع عليه أحداً منهم إلا من شاء ممن اصطفاه (اجتمعت بأمانتها) على حفظ أمانتها (الشرج) بالتحريك عُرى العيبة .

العلوم الغيبية وإفاضتها على بعض الخواص

وقد أبدع الناظم فى بيان أن المغيبات فى حجبها عن الخلق إلا ماشاء الله إظهاره منها لمن شاء كنفائس الأمانات توضع فى أوعية محكمة مشدودة العرى لايخرج منها شىء ولا يطلع على ما فيها أحد إلا من أذن له فى حل عراها ليصل إلى شىء مما فيها .

وبيانه أن علم الله تعالى محيط بجميع الغيب . يعلمه كما يعلم الشهادة علما تاما كاملا لا يعزب عنه مثقال ذرة من كلياته وجزئياته ولا من إجماله وتفصيله قال تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ﴾ ﴿ أحاط بكل شىء علما ﴾ ﴿ وأحصى كل شىء عدداً ﴾ وقال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ﴾ أى لا يعلمها هذا العلم التام الكامل إلا هو سبحانه .

ومفاتح الغيب خزائنه ومنها مافى قوله تعالى جوابا عما سأل عنه المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ فبين سبحانه أنه المستأثر بعلم هذه الخمس أى العلم التام الكامل المحيط الشامل كما استأثر بعلم سائر الغيب كذلك .

وفى هذا الاشتياق لذة قوية وألم شديد ، فأما لذته فمن حيث دوام ذكر المحبوب ومحبته والهيام به والأنس بذكره ، وأما ألمه فمن حيث كونه نارا تضطرم فى الأحشاء دائمة الاشتعال لا تخبو ولا تطفأ باللقاء بل يزيدها اللقاء ضراما كما يزيدها الحرمان منه احتراقا فتبقى النفس فى الحالين فى ألم شديد .

وأحبب بهذا الألم فى سبيل المقصد الأسنى والمطلب الأعلى ، وللعارفين فى مقام الحب والشوق والاشتياق روائع وسوانح يضيق عنها هذا التعليق الموجز .

﴿ وثنايا الحَسْنا ضاحِكةٌ وتمامُ الضِّحْك على الفَلَج ﴾

(الثنايا) أربع أسنان ثنتان من أعلى وثنتان من أسفل (ضاحكة) أسند إليها الضحك وحقيقته للحسناء (الفلج) بالتحريك تباعد منابت الأسنان وهو وصف ممدوح .

كنى الناظم بالحسناء ذات الثنايا والفلج ـ عن إحدى الحور العين الحسان المذكورات فى البيت الحادى والعشرين (١) ، وبضحكها الذى يظهر ثناياها الجميلة ـ عن سرورها ورضاها بزوجها الذى أمهرها العلم النافع والعمل الصالح ، وبتمام ضحكها الذى يظهر فلجها الحسن ـ عن تمام سرورها ورضاها به حتى لا تبغى به بديلا وإن كان أجل وأحسن لأنهن جبلن على السرور والرضا بأزواجهن فى جنة الخلد .

وفى هذا البيت مع ما تقدم من شأن الحور العين ورضاهن وأن مهورهن الطاعات إشارات لطيفة إلى تأكيد الحث على الجد فى العلم النافع وفى العمل بموجبه بعد الحث على الصبر عليهما واتقاء أخطارهما ما داما وسيلتى هذا النعيم المقيم .

---

(١) ص ٣٢ .

فهو اسم للحاصل بالفعل (الهرج) بسكون الراء الفتنة وحرك للوزن وبفتحها تحير البصر .

الرفق ومدحه والخرق وذمه

ورد فى الحديث الصحيح « الرفق خير كله » و « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه وما كان الخرق فى شىء إلا شانه » و « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله » وحسب الرفق منقبة أن الله يحبه ويصف به نفسه .

أما الخرق فهو بعكس الرفق ـ شر كله يشين صاحبه عند الله والناس وكثيراً ما يفضى إلى الفتنة والشر أو إلى الحيرة والاضطراب ، والأخرق مشئوم يجر على نفسه الويلات وعلى غيره النكبات أينما توجه لا يأت بخير .

والخرق إما إفراط وإسراف فيما لا خير فيه وإما تفريط وإهمال فيما فيه خير وكلاهما مذموم فى كل حال .

والرفق هو الوسط بين الطرفين وهو الاعتدال المحمود الذى يؤتى أطيب الثمرات فى سائر الأمور . فى العلم والعمل ، وفى العبادات والعادات، وفى الأخلاق والمعاملات وقد قيل « خير الأمور الوسط » ويشير إليه قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ ، ومن ثمراته فى باب العمل أنه سبب الدوام عليه فيدوم لصاحبه الخير فإن من أفرط فيه يعتريه الملل فينقطع عن العمل ومن فرط فيه قصر ، أو أهمل ، ويشير إلى ذلك ما فى حديث البخارى « وكان أحب الدين إليه ـ أى إلى الله ـ مادام عليه صاحبه وإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا » وفى الأثر « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

فمن العقل والحكمة الاعتدال فى كل الأمور واتخاذه دستوراً عمليا فى كل

كما بين سبحانه أنه قد يظهر الرسول على شىء من غيبه فيعلمه على النحو الذى أراده سبحانه وبالقدر الذى تقتضيه الحكمة فى قوله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ أى فلا يطلع على جميع غيبه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه من رسول فإنه يطلعه على بعض غيبه بالقدر الذى تقتضيه الحكمة من الإظهار .

ولا خفاء أن مايظهره عليه من الغيب قبس من أنوار ، ولمعة من أسرار وقُلٌّ من كُثر ضرورة الفرق بين علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم الممد المفيد وعلم المستمد المستفيد ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ وكلماته معلوماته ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

* * *

على أنه بعد إظهاره لا يكون من عالم الغيب بل من عالم الشهادة وتسميته حينئذ غيبا إنما هو بحسب الظاهر أو بالنسبة لغير الرسل من الناس .

ولا ينافى الآية كما نصوا عليه فى التفسير إظهار الله تعالى بعض أصفيائه من أتباع الرسل الذين ساروا على قدمهم واتبعوا سبيلهم على ماشاء من غيبه لأنه تبع وتلميح وكرامة ، وما للرسل عليهم السلام أصل وتصريح ومعجزة فافهم ترشد والله أعلم .

﴿ والرفقُ يدوم لصاحبه والخرق يصير إلى الهَرَج ﴾

(الرفق) التوسط واللطافة فى الفعل وضده (الخرق) بفتح الخاء وأما بضمها

وجعلها تشريعا حكيما عدلا وسطا لا تعقيد فيه ولا إفراط ولا تفريط بل كله توسط واعتدال ورحمة .

وللنبي صلى الله عليه وسلم في عنق كل مؤمن حقوق يجب الوفاء بها إذ هو سبب النجاة و السعادة الأخروية ، ووسيلة معرفة الله ورضاه ، منها الصلاة والسلام عليه كلما ذكر ، قال تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

اللهم صل وسلم وبارك على نبيك ورسولك ومجتباك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم ولد صبيحة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل وقيل لتسع منه وهو يوافق سنة ٥٧٠ م على ماحققه بعضهم ، وبعث على رأس الأربعين يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل ، وأول ماأوحى إليه من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق أقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وهو بغار حراء الذى كان يتعبد به ، وأقام بمكة يدعو إلى التوحيد ويبلغ الرسالة ثلاث عشرة سنة ثم خرج منها مهاجراً بعد بيعة العقبة بشهرين وليال يوم الخميس وذلك لهلال ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت منه — وانتقل إلى الرفيق الأعلى ضحى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول وعمره ثلاث وستون سنة ودفن ليلة الأربعاء وقيل يوم الثلاثاء فى البقعة التى قبض فيها فى بيت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وتولى الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم بالبيعة من المسلمين أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

فائدة : (النسب الشريف) هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن

الشئون حتى فى باب العبادات والمجاهدات وتربية النفوس على الفضائل والكرامات . نسأل الله تعالى أن يجعل حظنا منه موفوراً ، وأن يجنبنا الخرق قليلا كان أو كثيراً والله الموفق .

(صلواتُ اللهِ على المهدِيِّ الهادى الناس إلى النهَج)

(صلوات الله) رحمته أى وسلامه ولم يصرح به الناظم لضيق النظم (المهدى) الرشيد قال تعالى ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ (الهادى) المرشد قال تعالى ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (النهج) الطريق المستقيم وحرك للوزن.

ختم الناظم قصيدته بالصلاة والسلام على أفضل الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله الذى بعثه الله رحمه للعالمين بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، وأيده بالمعجزات الباهرة وأعظمها القرآن العظيم فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى الأمة وأنقذها من الضلالة ، وجاهد فى الله حق الجهاد حتى أقام الحنيفية السمحة ملة التوحيد والفطرة وطهر بيت الله الحرام والجزيرة العربية من رجس الشرك والوثنية ، وشرع للامة بوحى سماوى شرائع الحق والعدل ، والهدى والرشاد فى الدين والدنيا التى سطع نورها فى الآفاق ، فكانت هدى ورحمة ، وعلما وتبيانا وحكمة وسعادة لمن أتبع سبيلها ، وانتهج طريقها، واتخذها دستورا للحياة الدنيوية والأخروية، وخصها الله من بين الشرائع السابقة بأن جعلها منذ أنزلها تشريعا عاما لكل الأمم فى كل عصر وزمان حيث أفسح للعقول السليمة والأفكار المستقيمة مجال النظر والتفكير ، والبحث والاجتهاد لاستنباط أحكام مايجد من الوقائع والشئون من أصول التشريع التى جاء بها الكتاب والسنة وأجمع عليه مجتهدو الأمة على نهج مستقيم يكفل صحة الاستنباط وصواب النظر والاجتهاد .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين القبر والمنبر ودفن مع النبى صلى الله عليه وسلم فجعل رأسه عند كتفيه عليه الصلاة والسلام .

(وأبى حفصٍ وكرامتِه في قصة ساريةَ الخِلج)

(أبو حفص) كنية عمر رضى الله عنه :

(وكرامته) فى نسخة وفراسته (سارية) بن حصن أو الحصين أو زنيم الديلمى قائد جيش المسلمين فى نهاوند وقد أطلع الله عمر وهو يخطب على المنبر بالمدينه يوم الجمعة على العسكر فرآهم محصورين فجعل يصيح ياسارية الجبل الجبل فسمع سارية الصوت فانتحى بالجند الجبل وقاتل العدو حتى انتصر وكتب بذلك إلى عمر وكان كما وقع ، وهذه إحدى كرامات الفاروق رضى الله عنه (الخلج) بفتح فكسر المشتكى من تعب ونحوه يقال خلج كفرح اشتكى من عمل أو طول مشى وتعب وهو وصف لسارية إذ كان تعبا من محاصرة العدو له ولمعسكره فى الحرب .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

أى وعلى ثانى الخلفاء الراشدين أبى حفص الفاروق عمر بن الخطاب بن نفيل ابن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب القرشى العدوى يلتقى مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده (كعب) وعمر هو الذى أعز الله بإسلامه الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه ونزل القرآن بموافقته فى عدة مواطن، وكان شديداً صارما فى الحق ، وفتح الله الفتوح العظيمة على يديه بعد أن ولى الخلافة ، ومناقبه لاتكاد تحصى ، وقد طعن بيد أثيمة وهو فى الصلاة

هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان .

وينتهى نسب عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأبى بكر فى سيرته ولسانِ مقالتِه اللّهِج)

(وأبى بكر) معطوف على المهدى فى البيت قبله (سيرته) طريقته (اللهج) المثابر على الصدق من لهج به كفرح أغرى به فثابر عليه وهو صفة لسان .

أبو بكر الصديق رضى الله عنه

أى وعلى أول الخلفاء الراشدين أبى بكر الصديق عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشى التيمى، يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى (مرة) ، وهو أفضل الصحابة ، وآثرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من آمن به من الرجال ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من يدخلها ، ورفيقه فى الهجرة وفى الغار وفى العريش يوم بدر ، وإمام المسلمين فى الصلاة بأمره صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى توفى فيه، وقد صلى عليه الصلاة والسلام خلفه مؤتما به فى مرضه ، وقد أعتق سبعة ممن كانوا يعذبون فى سبيل الله لإيمانهم بالرسالة كبلال وأبى فهيرة ، وأنفق ما أسلم عليه من ماله فى سبيل الله وعلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهو أربعون ألفا . ولما ولى الخلافة قام مقام صدق فيها وحارب أهل الردة من العرب حتى استقام الأمر وعز الإسلام ، وجمع صحف القرآن وسماه مصحفا ، وتوفى لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة عن ثلاث وستين سنة ، وصلى عليه

الـكريمتين بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم إحداهما بعد موت الأخرى وبعد الثانية قال له النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان لي غيرها لزوجتكها » وهو الذى أمر بجمع القرآن وكتابة المصحف الإمام وإرساله إلى أقطار الإسلام فـكان ذلك أعظم منة على المسلمين إلى يوم الدين ، وهو أحد الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقد جهز جيش العسرة من ماله واشترى من ماله موضع خمس سوار وزادها فى المسجد النبوى الشريف ، استشهد وهو يقرأ القرآن فى المصحف يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين عن اثنتين وثمانين سنة وأشهر على الأصح ودفن فى البقيع رضى الله عنه .

﴿ وأَبى حسن فى العلم إذا وافى بسحائبه الخُلُج ﴾

(أبى حسن) كنية على كرم الله وجهه (السحائب) الغيم (الخلج) بضمتين جمع خلوج بفتح الخاء وهو السحاب المتفرق أو الـكثير الماء أى إذا أتى بعلومه التى تشبه السحائب العظيمة النفع فى كل فن وناحية .

على بن أبى طالب رضى الله عنه

أى وعلى رابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب بن عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمه وأول من آمن به من الصبيان وكان فى حجره صلى الله عليه وسلم وتربيته . وهو الذى نام على فراشه صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة حتى ظن المشركون أن النائم هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو زوج فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم وقد رزق منها بالحسن والحسين ومحسن الذى مات صغيراً وبزينب وأم كلثوم ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة وكان شجاعا باسلا خبيراً بفنون الحرب فصيحا بليغا فى مقاله وخطبه قويا فى حجاجه وهو صاحب المواقف المشهودة .

لست بقين من ذى الحجةسنة ثلاث وعشرين من الهجرة عن ثلاث وستين سنة على الأصح فمات شهيداً ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين من الهجرة النبوية بجوار رفيقه أبى بكر الصديق فكانا رفيقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجرة بعد الوفاة كما كانا رفيقيه الملازمين له فى الحياة وتلك منقبة عظيمة للشيخين رضى الله عنهما .

﴿وأبى عمروذى النورين المستحِي المستحْيا البَهِج﴾

(أبو عمرو) كنية عثمان رضى الله عنه :

(ذى النورين) لتزوجه رضى الله عنه رقية ثم أم كلثوم بنتى النبى صلى الله عليه وسلم (المستحى) بكسر الياء روى أنه صلى الله عليه وسلم قال «عثمان أحيي أمتى وأكرمها» (المستحيا) بفتح الياء أى منه روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسا بحافة بئر وهو مكشوف الفخد فدخل أبو بكر فلم يغط فخذه ودخل عمر فلم يغطه ودخل عثمان فغطاه وقال ألا نستحى ممن استحت منه الملائكة رواه البخارى وغيره (البهج) بفتح فكسر حسن الخلق والخلق ، قال ابن البر : كان جميلا حسن الوجه رقيق البشرة ربعة أسمر اللون يصفر لحيته ويشد أسنانه بالذهب .

عثمان بن عفان رضى الله عنه

أى وعلى ثالث الخلفاء الراشدين أبى عمر أو أبى عبد الله أو أبى ليلى عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى الأموى يلتقى مع النبى صلى الله عليه وسلم (فى عبد مناف) وهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، هاجر الهجرتين وتزوج السيدتين

بسم الله الرحمن الرحيم

القصيدة المنفرجة

اشتدِّى أَزْمَةُ تَنفَرِجى قد آذنَ ليلُكِ بالبَلَجِ
وظلامُ الليلِ له سُرُجٌ حتى يغشاه أَبو السُّرُجِ
وسحابُ الخير له مَطَرٌ فإذا جاءَ الإِبَّانُ يَجى
وفوائدُ مولانا جُمَلٌ لِسُرُوحِ الأنفسِ والمُهَجِ
ولها أَرَجٌ مُحْيِي أبدًا فاقْصدْ مَحيا ذاكَ الأَرَجِ
فلَرُبَّمَا فاض المحْيَا بِبُحُورِ المَوْج من اللُّجَجِ

والخلقُ جميعاً في يَدهِ فذوو سَعةٍ وذوُو حرَجِ
ونُزُولهمُ وطُلوعُهُمُ فإِلَى دَرَكٍ وعلى دَرَجِ
ومعايشُهمْ وعواقِبُهمْ ليستْ في المَشْيِ على عِوَجِ
حكَمٌ نُسجت بِيَدٍ حكَمتْ ثم انتسجَتْ بالمنتَسجِ
فإذا اقتصَدتْ ثمَّ انعرجَتْ فبمقتَصِدٍ وَبمُنعَرِجِ
شَهِدتْ بعجائبها حُجَجٌ قامت بالامر على حِجَجِ

ورضا بقضاءِ الله حَجِى فعلَى مركوزَتِهِ فَعُجِ

استشهد ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين من الهجرة عن ثلاث وستين سنة على الصحيح واختلف فى موضع دفنه رضى الله عنه .

* * *

إلى هنا تمت القصيدة

وفى شرح شيخ الإسلام بعد هذا البيت ما يأتى :

وصحابته وقرابته وقفاة الأثر على عرج
وإذا بك ضاق الذرع فقل (اشتدى أزمة تنفرجى)

وفى نسخة أخرى بدل هذين البيتين خمسة أبيات وهى :

وهدى بضياء الذكر ودلْ لَ القوم على أسنى نهج
وعلى أتباعهم العلما بعوارف دينهم النهج
وعلى السبطين وأمهما وجميع الآل بهم نلج
وعلى الأصحاب بجملتهم بذلوا الأموال مع المهج
يارب بهم وبآلهم عجل بالنصر وبالفرج

اهـ — وفى تخميس ابن مليك بعده :

واختم عملى بخواتمها لأكون غداً فى الحشر نجى
لكن من جودك مغترف فاقبل لمعاذيرى حججى

اهـ . . .

والظاهر أنها زيادات على الأصل . زيدت بعد من القارئين العارفين والله أعلم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . والصلاة والسلام على سيد السادات وعلى آله وأزواجه وأصحابه وأتباعه ذوى النهى والكرامات .

ويليه : القصيدة مضبوطة لقراءتها وحفظها .

وإذا كنتَ المقدَامَ فلا تجزَعْ في الحرب من الرَّهَجِ

وإذا أبصرتَ منارَ هُدىً فاظهَرْ فرداً فوق الثَّبَجِ

وإذا اشتاقت نفسٌ وجَدتْ ألماً بالشوق المُعْتَلِجِ

وثنايا الحسْنا ضاحكةٌ وتمامُ الضّحك على الفَلَجِ

وعيابُ الأسرار اجتمعتْ بأماناتها تحت الشَّرَجِ

والرِّفقُ يدُوم لِصَاحِبِه والخُرقُ يصيرُ إلى الْهَرَجِ

صَلَواتُ اللهِ علَى المَهدِيِّ الهادِي النَّاسَ إلى النَّهجِ

وأبى بكر في سِيرَتِهِ ولسانِ مقالتِه اللهجِ

وأبى حفص وكرامته في قصة سارية الخُلُجِ

وأبى عَمْروٍ ذى النورينِ الْمُسْتَحْى المستَحْيَا البَهِجِ

وأبى حَسَنٍ في العلم إذا وَافَى بسحائبه الخُلُجِ

تمت القصيدة المباركة وهى أربعون بيتا

وإذا انفتحتْ أبوابُ هدىً فاعجلْ لخزائنها وَلِجِ
وَإذا حاولتَ نهايتها فاحذرْ إذْ ذاك من العَرَجِ
لتكون من السُّبَّاق إذا ما جئتَ إلى تلك الفُرَجِ
فهناكَ العيشُ وبهجتهُ فلِمُبتهِجٍ ولمنتهِجِ
فهجِ الأعمالَ إذا ركدتْ فإذا ما هِجْتَ إذاً تهِجِ

ومعاصِي اللهِ سَماجتُها تَزْدَانُ لذي الخُلُقِ السَّمِجِ
ولطاعتِه وصَبَاحتِها أنوارُ صباحٍ مُنْبلِجِ
من يخطب حُورَ الخُلْدِ بها يَظفَرْ بالحُورِ وبالغُنُجِ
فكن المرضيَّ لها بتُقًى ترضاهُ غداً وتكونُ نَجِي

واتلُ القرآنَ بقلبٍ ذي حَزَنٍ وبصوتٍ فيه شَجِى
وصلاةُ الليلِ مسافتُها فاذهبْ فيها بالفهم وَجِى
وتأمَّلْها ومعانيَها تأتِ الفردوسَ وتنفرِجِ
واشربْ تسنيمَ مفجَّرِها لا ممتزجًا وبِمُمْتزِجِ

مُدِحَ العقلُ الآتيه هُدىً وَهوًى مُتَوَلٍّ عنه هُجِي

وكتابُ اللهِ رياضتُه لِعقولِ الخلق بِمُنْدَرِجِ

وخيارُ الخلقِ هُدَاتُهُمُ وسواهم من هَمَجِ الهَمَجِ

مباحث القصيدة وشرحها